



1985-12-27 📅

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

إرسال الأنبياء والمرسلين إلى البشر دليل رحمة الله سبحانه وتعالى :

أيها الإخوة المؤمنون ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى بعد أن وردت قصة سيدنا نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وكيف أن قومه كذبوه فأغرقهم ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعْتِبِينَ ﴾ ..
الحقيقة أن خلق السماوات والأرض يدل على أسماء الله الحسنى ، ومن بين هذه الأسماء الحسنى قوته ، وغناه ، وعلمه ، وحكمته ، وإرسال المرسلين إلى البشر يدل على رحمته بالعباد :

﴿ وَكُنْتُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) ﴾

[سورة الأعراف]

أباً إن كان له ابنٌ شارداً لا يدخرُ وسعاً في نصحه وإرشاده صباحاً مساءً ، ليللاً نهاراً ، فأرسل الأنبياء والمرسلين إلى البشر دليل رحمة الله سبحانه وتعالى .. ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ أي :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) ﴾

[سورة الرعد]

وبعضهم فهم هذه الآية فهماً موسعاً ، لكل إنسان طريقة يهتدي بها ؛ هذا يهتدي بالإقناع ، وهذا يهتدي بالتضييق ، وهذا يهتدي بالخوف ، وهذا يهتدي بمصيبة تصيب ماله ، وهذا يهتدي بالمرض : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) ﴾ ، ولكل قوم رجل يدعوهم إلى الطريق الصحيح ، إذأ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ... أي الشيء البارز في دعوة الأنبياء الوضوح ، قال عليه الصلاة والسلام :

((عن العراب بن سارية : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عظةً ذرقت منها العيون ووجلَّت منها القلوب فقلنا يا رسول الله إن هذه لموعظةٌ مودع فماذا تعهدونا بها ؟ فقال : تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ ، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين . وعليكم بالطاعة وإن كان عبداً حبشياً عضواً عليها بالتواجد فإنما المؤمن كالجمل الأبق كلما قيده انقاد .))

[البراد ، ابن ماجه ورجاله رجال الصحيح]

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) ﴾

[سورة الأنعام]

سمات دعوة الأنبياء :

من سمات دعوة الأنبياء البارزة الوضوح ، الأمور واضحة جداً ، هناك تفسير كامل للكون ، تفسير للحياة ، للموت ، للبعث من بعد الموت ، لما قبل الحياة ، لما بعد الحياة ، تفسير للعمل ، تفسير لكل شيء ، الأنبياء يقدمون تفسيرات متكاملة لكل مظاهر الحياة ، بينما النظريات الأخرى تقدم تفسيرات مجتزأة ، مبتورة ، ناقصة ، غير كاملة ، لا تشفي الغليل ، الحق يثبت والباطل يبطل أي يزول ..

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) ﴾

[سورة الإسراء]

لأن هذه النظرية الوضعيَّة ليست مستندة إلى أساس متين ، لذلك لا تقف على قدميها ، تتلاشى سريعاً ، تنداعى سريعاً ..

تفسير معنى البيئات :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بعضهم فسَّر البيئات بالمعجزات ، والمعجزات دليل قاطع على أن هذا الإنسان عند الله ، لأن إحياء الميت لا يستطيعه أحد من بني البشر ، فإذا أحيا سيدنا عيسى ميتاً فهذا بإذن الله ، إذاً هو رسول الله ، أن تنقلب العصا إلى ثعبان مبین هذا لا يستطيعه بشر ، لا بد من أن هذا الذي فعل ذلك هو رسول الله ، الذي جعل البحر طريقاً يبساً هذا ينبغي أن يكون رسول الله ، الذي جاء بهذا التشريع المُعْجِز الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة هذا أيضاً رسول الله .. **﴿ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾** إذاً بعض تفسيرات البيئات المعجزات التي أيد الله بها أنبياءه .

وبعضهم قال يضيف إلى هذا المعنى : البيئات الحجج القاطعة ، كيف يُقال : إن محمداً سحر أصحابه ؟ بماذا سحرهم ؟ بالمنطق ، بالحق الذي لا يُرَدُّ عليه ، ماذا قال بعض الأعراب ؟ والله ما قال النبي شيئاً وقال العقل خلاف ذلك ، فإذا استخدم الإنسان عقله استخداماً صحيحاً لحظة واحدة ، وأجرى محاكمة منطقية سجد إلى الأبد ، فإذا عطل عقله أو أساء استخدامه شقي إلى الأبد ، مناط السعادة والشقاء .. بك أعطي ، وبك أخذ .. استخدام العقل بشكل صحيح مناط السعادة ، ومناط الشقاء تعطيله أو إساءة استخدامه .

علامة المتبع لرسول الله أنه يدعو على بصيرة :

﴿ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الآن المؤمن له من هذه الآية نصيب ..

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) ﴾

[سورة الأنعام]

مؤمن ، مخلص ، صادق ، معه حجة ، يمشي على بينة ..

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) ﴾

[سورة يوسف]

علامة المتبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدعو على بصيرة ، الأمور عنده واضحة تماماً ..

فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ لَهُذِهِ الْآيَةُ مَجْمُوعَةٌ تَفْسِيرَاتٌ :

﴿ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ لهذه الآية مجموعة تفسيرات ، أوجه هذه التفسيرات أن الكفر هو هو ، قديماً وحديثاً ، كل أمة كفرت بربها لها موقف من الحق ثابت هو التأكيد ، التأكيد في الأمم جميعاً مهما اختلفت عصورها وأمصارها .. **﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾** هذه الصيغة أشد أنواع النفي ، لا تنفي الحدت إنما تنفي الشأن ، قلت هذا كثيراً سابقاً : إذا قلت : فلان لم يسرق ، نفيت عنه الحدث ، أما إذا قلت : فلان ما كان له أن يسرق ، نفيت عنه إمكانية السرقة ، فهذا الذي يمشي مع شهوته ، وينغمس في الباطل ، ويعتدي ، ويخطئ ما كان له أن يؤمن ، أي إذا أمضى الإنسان كل وقته في الملاهي ما كان له أن يكون طيبياً ، لا ننفي عنه حيازته لهذه الشهادة بل ننفي عنه إمكانية أن يكون طيبياً ، هذا تقريب للواقع ، فهو لاء الأرقام : **﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾** هذا الذي كذب به أسلافهم هم سيكذبون به ، ولم يؤمنوا ، ولن يؤمنوا ، لأن إمكانية الإيمان وهم على ما هم عليه معدومة ، كأن تنظر إلى إنسان غارق في ملذاته وفي شهواته ثم تقول لك : ساكون مهندساً ، تقول له : ما كان لك أن تكون مهندساً ، إنك في وادٍ والعلم في وادٍ آخر ، فهذا النفي المراد منه أشد أنواع النفي ، المبالغة في النفي ..

المعتدي إنسان منقطع عن الله وعمل كل إنسان مبنّي على اختياره :

﴿فَمَا تَأْتُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ .. أي الإنسان أحياناً لضيق في أفقه أو لسرعة في فهمه يظن أن الله سبحانه وتعالى ختم على هذا القلب فلا يهتدي أبداً ، يقول لك : الأمر بيد الله ، فعلاً بيد الله ، هذه كلمة حق ، لكن إذا قلت في معرض الهداية ، إذا اعتذرت بعدم هدايتك أن الأمر بيد الله فهذه كلمة حق أريد بها باطل .

أود أن أضرب لكم بعض الأمثلة : إذا دخلت إلى بيت صديق لك يحمل الدكتوراه ، وهذه الشهادة معقّفة على الحائط ، فقرأتها فإذا فيها : لقد منح مجلس الجامعة فلاناً الفلاني درجة الدكتوراه في الطب ، أو في الهندسة ، ونال حقوق هذه الشهادة وامتنيازاتها ، أنت في هذا العصر هل تفهم من هذا الكلام أن رئاسة الجامعة طرقت أحد الأبواب ، وقالت لفلان : تعال لنعطيك الدكتوراه أم هذا الذي منحه هذه الشهادة كان أهلاً لها ؟ ألفت لجنة للإشراف على أطروحة ، ونوقشت هذه الرسالة ، وقد مضى على تأليفها سنوات عدّة ، وكان قبلها قد حاز الماجستير ، وقبلها قد حاز الليسانس ، وقبلها قد حاز الثانوية بعلامات مرتفعة ، وقبلها ، وقبلها ، فهل تفهم أيها الأخ الكريم من كلمة : منح مجلس الجامعة فلاناً الفلاني الدكتوراه ؟ هل تفهم من هذه الكلمة أن هذا المنح بلا مقابل ؟ بلا استحقاق ؟ بلا جهد ؟ بلا تعب ؟ بلا كسب ؟ بلا أهلية ؟ بلا اصطفاة ؟

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ﴾

[سورة آل عمران]

بالمقابل إذا قرأت في بعض البلاغات : يُخَرِّم فلان الفلاني من التّفهُم للامتحان ، أي مجلس الجامعة هل يحرم طالباً بلا سبب ؟ بانقطاعه عن الدوام ، بتطاوله على بعض المدرّسين ، بإساءته للنظام ، فكلمة مُنِح وكلمة خُرِم بالبيدوية من دون تعقيد مقابلها أعمال قام بها هذا الذي مُنِح الشهادة ، وأعمال سيئة قام بها هذا الذي خُرِمها ، إذا عندما يقول ربنا عزّ وجل : ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا ينبغي لك يا أخي الكريم أن تفهم كلمة نطبع بمعنى أن الله عزّ وجل شاءت إرادته أن يختم على قلب فلان فلا يهتدي ، لا ، إذا كان إنسان من بني البشر يترفع عن ذلك ، لا يخرم ، ولا يعاقب ، ولا يفصل ، ولا يطرده ، ولا يمنع إلا إذا استحقاق ، فهل يُعقل أن الله سبحانه وتعالى لا يندري ما السبب طبع على قلب فلان ؟ إذا ربنا عزّ وجل إذا عزا الفعل إليه معنى ذلك أن هذا الفعل من حيث التنفيذ بيده ، أما من حيث السبب بيد فلان ، كان تقول : المعلم رسب فلاناً الفلاني ، قرار الترسيب بيد المعلم ، وهو الذي كتب رسب في صفّه ، وهو الذي وقّع ، لكن هذا الطالب رسب باستحقاق ، لأنه كسول ، فإذا رأيت فعلاً في القرآن قد عُزِيَ إلى الله لا يذهبن بك الظن إلى أن الله شاءت إرادته أن يفعل بفلان كذا وكذا من دون اختيار منه ، نحن مخيرون في إرادتنا ، ومسؤولون في أعمالنا ، وتسييرنا لما اخترنا .

تسيير الله عزّ وجل يُحْمَلُ على ثلاثة احتمالات ، إما أن يسيّرنا الله سبحانه وتعالى لتحقيق اختيارنا ، وهذا التسيير تجسيداً لاختيارنا ، وإما أن يسيّرنا لتشجيعنا على نوايا طيبة أو عملٍ طيب ، إكرام ، وإما تسيير ليوذّبنا فيه على تقصيرنا ، إما تجسيد ، أو تشجيع ، أو تأديب ، وعمل الإنسان مبنّي على اختياره ، والإنسان مخيّر ، لكنّه إذا اختار معصية الله عزّ وجل يسيّرهُ الله لتحمل نتائج عمله ، كما لو أن مواطناً اختار أسلوباً خاطئاً في التعامل ، والقوانين تحظر هذا الأسلوب مثلاً ، هو اختار ذلك ، بعد أن اختار ذلك ليس مخيّرأ بعدها في ألا يلقى نتائج أعماله ، لا بد من أن يلقى نتائج أعماله بحسب اختياره ، فكلمة : ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ إذا عُزِيَ الطبع إلى الله عزّ وجل فلا سبب تعود كليّة إلى العبد لقوله تعالى :

﴿وإذ قال موسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مِّنْ أَهْلِ الْعَالَمِينَ (5) ﴾

[سورة الصف]

هناك معنى آخر يُستنبط من هذه الآية ، هو أن الذي يعتدي بالمعنى الواسع ، الكلمات في القرآن الكريم تأخذ معنى ضيقاً ومعنى واسعاً ، فالعدوان في القرآن بمعناه الواسع كل تجاوز للحقوق ، لو تجاوز الإنسان على حقّ إنسان ما فقد اعتدى عليه ، لو جعلت إنساناً ينتظر بلا سبب ساعة فقد اعتديت على وقته من دون سبب ، إذا سمحت لنفسك أن تأخذ من ماله فوق ما تستحق فقد اعتديت على ماله ، إذا نظرت إلى امرأة لا تحلّ لك فقد اعتديت على زوجها ، هذه عرّضهُ ، واعتديت عليها ، واعتديت على نفسك فخرّمتها الإقبال على الله عزّ وجل ، فالعدوان بهذا المعنى واسع جداً ، إلقاء نظرة على امرأة لا تحلّ لك نوعاً من أنواع العدوان ..

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُورِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنْ ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) ﴾

[سورة المؤمنون]

تجاوز الحد ، إذا أساء إنسان إليك فرددت عليه بإساءة أكبر فانت معتد ..

﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) ﴾

[سورة الشورى]

الملخص : المعتدي لا يهتدي ، لماذا ؟ ما تفسير ذلك ؟ لأنه بعدوانه منقطع عن الله عزّ وجل ، وأنت تعرف الله بنور الله ، وتهتدي إلى الله بالله ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، فالمعتدي بعدوانه محجوب عن ربه ، وإذا حجب عن الله عزّ وجل حجب عن أنواره ، أتى لأنوار الله عزّ وجل أن تدخل إلى قلبه ؟! .. ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ .

المعتدي لا يهتدي :

لذلك :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ النَّبِيَّ (2) ﴾

[سورة الماعون]

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيِرَ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50) ﴾

[سورة القصص]

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) ﴾

[سورة العلق]

انتهت الآية ، أي هذا الذي ينهاك عن الصلاة لا تُجْتَنَّبُ نفسك مشقة سماع كلامه إطلاقاً ، وليكفك منه أن تنتظر إلى أفعاله الدينية ، إلى انحرافاته ، إلى شذوذه ، إلى أنانيته ، إلى حبه لذاته ، إلى استعلائه ، إلى بناء مجده على أنقاض الآخرين ، إلى بناء غناه على فقرهم ، إلى بناء حياته على موتهم ، هذا الذي ينهاك عن الصلاة لا تنتظر إلى كلامه ، لا تنتظر في فحوى كلامه ، بل انظر إلى أفعاله ، أفعاله تؤكد لك أنه ليس على الحق ، لو أنه على الحق لأمرك بالصلاة .. ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى (12) ﴾ انظر إلى أخلاقه ، إلى ورعه ، إلى عقته ، إلى كماله ، إلى شجاعته ، إلى كرمه ، انظر ، لو لم يكن للمؤمن لسان فَعَمَلُهُ ينطق بأنه مؤمن ، ولو بقي الكافر صامتاً فَعَمَلُهُ وحده ينطق بأنه كافر ، فيه لوم ، يقابل الإحسان بالإساءة ..

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

فذلك : ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ بمعنى أن المعتدي لا يهتدي ، لذلك لا تُحْمَلُ نفسك مشقة مناقشة المعتدي لأنه لن يهتدي ..

﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) ﴾

[سورة الأعلى]

ولكن شمر لهداية المستقيم فإنه قريب المأخذ ، سريع التأثر ، سريع الاستجابة .

مَنْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ فَلْيَكُنْ أَمْرُهُ بِمَعْرُوفٍ :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ .. من فرعون؟ ماذا قال فرعون؟ قال فرعون :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) ﴾

[سورة القصص]

هذا قاله في المرة الأولى ، قال مرّة ثانية :

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) ﴾

[سورة النازعات]

فربنا عز وجل قال :

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) ﴾

[سورة النازعات]

يعجب المفسر لماذا بدأ الله بالآخرة وتنتى بالأولى مع أن الترتيب المنطقي الأولى والآخرة ؟ لأن قوله الآخر الثاني كان أشد كفراً من قوله الأول ، فانه سبحانه وتعالى بدأ بالآخرة ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) ﴾ ..

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) ﴾

[سورة الزخرف]

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾

[سورة طه]

نبي كريم ، سيدنا موسى ، يأمره الله سبحانه وتعالى أن يلين القول لمن قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) ﴾ ولمن قال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ فانت أيها الأخ الكريم المؤمن إذا كان فرعون على ما هو عليه من الكفر يجب أن تقول له قولاً لئناً فما قولك إذا دعوت إنساناً إلى الله عز وجل ؟ هل تقسو أنت عليه ؟ يروي التاريخ أن أحد الأمراء جاءه واعظ فقال له : أيها الأمير سوف أعظك بعلظة ، فقال هذا الأمير : ولم العلظة يا أخي ؟ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني ، أرسل موسى إلى فرعون فقال له :

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ أَعْلَهُ بِتَدَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)﴾

[سورة طه]

إذاً: مَنْ أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف ..

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُتَوَكِّلِينَ (159)﴾

[سورة آل عمران]

ولن تستطيع أن تؤثر في قلوب الناس إلا بإحسانك قبل لسانك ، وقلوب البلاد المفتوحة فُتحت للمسلمين قبل أن تُفتح بسيفهم .. لذلك التوَدُّد إلى الناس ، لين القول ، الرحمة ، العمل الطيب ، الخدمة ، هذه رسل الهدى ، قبل أن تنصحهم بالصلاة أو من شخصك مثلاً أعلى في التعامل ، كن صادقاً معه ، كن رحيماً به ، كن عطوفاً عليه ، ابنل من وقتك ومالك لخدمته حتى يهتدي بهدالك .

إذاً: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ بِالْكَافِرِ ، لو يعلم الكافر انتظارى لترك معاصيه لتقطعت أوصاله من حيتى ، ولما شوقاً لى ، هذه إرادتى بالمعربين فكيف إرادتى بالمقبلين؟

الآيات التالية تعلمنا اللطف في الدعوة إلى الله :

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ هذه الآيات تعلمنا الأدب ، تعلمنا اللطف في الدعوة إلى الله ، والآية الكريمة تكفي .. ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ .

((عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لِيَسْتَعِينَهُ فِي شَيْءٍ قَالَ عِكْرَمَةُ : أَرَأَيْتَ قَالَ : فِي دَمٍ فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ : أَحْسَنْتَ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : لَا وَلَا أَجْمَلْتُ . فَغَضِبَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُمُورًا أَنْ يُفْوَوا إِلَيْهِ ، فَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ : أَنْ كُفُوا . فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَلَغَ إِلَى مَنْزِلِهِ ، دَعَا الْأَعْرَابِيَّ إِلَى الْبَيْتِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ جِئْتَنَا فَسَأَلْتَنَا فَأَعْطَيْنَاكَ ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ . فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقَالَ : أَحْسَنْتَ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : نَعَمْ ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ عَشِيرَةِ خَيْرًا . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّكَ جِئْتَنَا فَسَأَلْتَنَا فَأَعْطَيْنَاكَ ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ ، وَفِي أَنْفُسِ أَصْحَابِي عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، فَإِذَا جِئْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ ، حَتَّى يَذْهَبَ عَنْ صُدُورِهِمْ . قَالَ : نَعَمْ . فَلَمَّا جَاءَ الْأَعْرَابِيُّ قَالَ : إِنَّ صَاحِبَكُمْ كَانَ جَاءَنَا فَسَأَلَنَا فَأَعْطَيْنَاهُ ، فَقَالَ مَا قَالَ ، وَإِنَّا قَدْ دَعَوْنَاهُ فَأَعْطَيْنَاهُ فَرَمَّ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ ، كَذَلِكَ يَا أَعْرَابِيُّ؟ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : نَعَمْ ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ عَشِيرَةِ خَيْرًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ ، فَشَرَّ دَنَتْ عَلَيْهِ ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِدْوا إِلَّا نُفُورًا ، فَقَالَ لَهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ : خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي ، فَأَنَارُوا بِهَا ، وَأَعْلَمُ بِهَا . فَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَأَخَذَ لَهَا مِنْ قَتَامِ الْأَرْضِ ، وَدَعَا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَجَابَتْ ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا وَإِنَّهُ لَوِ اطْعَمَكُمْ حَيْثُ قَالَ مَا قَالَ لِدُخْلِ النَّارِ)) .

[ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، خلاصة حكم المحدث: ضعيف]

هذه رحمته صلى الله عليه وسلم . قال أعرابي جلف للنبي : والله ما عدلت يا محمَّد ، فقال عليه الصلاة والسلام وقد نبض عرق في جبينه ، وكان هذا العرق إذا غضب يبيض ، قال له : ويحك فمن يعدل إن لم يعدل؟ . مَنْ في الأرض يعدل إن لم يعدل؟ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ بِالْكَافِرِ﴾ .. ليس فرعون وحده هو المقصود بل عليَّة قومه ، هؤلاء هم الذين قدوة للناس ، يميل الناس حيث يميلون ، سيدنا عمر رضي الله عنه كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته قبل كل شيء وقال : إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير ، إن رأوكم وقعتم وقعوا ، وإيم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني ، فعلق بعضهم على هذه القصة قصارت القرابة من عمر مصيبة ، مصيبة كبيرة أن تكون قريباً من عمر ، لأن العقاب سوف يتضاعف ، المقصود إذ فرعون وملنه .

الكبير أحد عوامل الكفر والتواضع من علامات المؤمن :

هؤلاء الذين ينظر الناس إليهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على الرسالة والنبوة ؛ العصا ، وشقُّ البحر ، والبيضاء ، ﴿فَأَسْتَكْبِرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ .. أحد عوامل الكفر الكبير ، ومن علامات المؤمن التواضع ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتواضعوا لمن تعلمونه ، والتواضع لابد منه في التعلُّم والتعليم ، وقال أحد العارفين بالله لبعض تلامذته وقد تجاوز حدَّه قال له : يا فتى نحن إلى أدبك أحوج منّا إلى علمك ، الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِئِنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215)﴾

[سورة الشعراء]

أخض جناحك ، كان عليه الصلاة والسلام يُكرِّم أصحابه كثيراً ، كان يحبُّهم ، كان يثني عليهم ، كان يعرف أقدارهم .. " والله يا معاذ إني لأحبُّك " .. سيدنا سعد : " هذا سعد ، هذا خالي أروني خالاً مثل خالي " .

سيدنا أبو عبيدة أمين هذه الأمة ، كل صحابيٍّ جليل أعطاه النبي عليه الصلاة والسلام وصفاً يليق به .. " لو كان نبيُّ بعدي لكان عمر " ، هكذا يجب أن تحبَّ من تعلمه ، أن تحبُّهم ، أن تعرف أقدارهم ، أن تنزلهم منازلهم ، أن تقدِّر أعمالهم ، تضحيتهم ، ورعهم ، استقامتهم حتى يحبُّوك ، أمّا فرعون وملوه فقد استكبروا ، والكبير مدبر ..

((عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقال رجل يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله جميل يحب الجمال إن الكبر من بطن الحق وعمص الناس))

[مسلم]

ما من فاتح على وجه الأرض فتح بلدة إلا وأخذته التيبة، وأخذته الغطرسة والاستعلاء والعلو، وما شاكل ذلك، إلا النبي عليه الصلاة والسلام حينما فتح مكة دخلها مطأطئ الرأس، فلما جمعهم وكان بإمكانه أن يقضي عليهم واحداً واحداً، هؤلاء الذين كذبوه، هؤلاء الذين أخرجوه، هؤلاء الذي انتمروا على قتله، هؤلاء الذين عدبوا أصحابه، هؤلاء الذين قتلوا أصحابه، هؤلاء الذين حاربوه ليستأصلوا شأفته، هؤلاء هؤلاء لَمَا كانوا في قبضته وكان بإمكانه أن يقضي عليهم، وأن يدمرهم عن آخرهم قال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: **أذهبوا فأنتم الطلقاء**. هكذا الرحمة، هكذا الحكمة.

أبو سفيان قبيل إسلامه قال له: والله ما أعفك! ما أحكمك! ما أرحمك! ما أوصلك! قال عليه الصلاة والسلام: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، أي أن هذا زعيم قريش، أي جعل له شأنًا، **من دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن**، فلما علم أبو سفيان قال: ما أعفك! ما أرحمك! ما أحكمك! ما أوصلك ..!

{ فاستكبروا وكانوا مجرمين } عدي بن حاتم عندما رأى النبي يكلم امرأة مسنة، ضعيفة، فقيرة، وقف معها طويلاً قال: والله ما هذا بأمر ملك، هذا ليس ملكاً، دخل إلى البيت ليس في بيت النبي الكريم إلا وسادة من أدم محشوة ليفاً، قال له النبي: اجلس عليها، قال: بل أنت، قال: بل أنت ضيفنا، قال: فجلست عليها وجلس هو على الأرض. يا محمد أنتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ قال له: بل نبياً عبداً أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره ..

{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) }

[سورة الأحزاب]

أكبر جريمة أن يكون الإنسان مجرماً بحق نفسه:

{ فاستكبروا وكانوا مجرمين } .. أي كلمة جريمة لا يوصف بها إنسان لم يدفع فاتورة الهاتف أبداً، هذا يقال له: مَقْصِرٌ، إن لم يدفع الفاتورة يقطعوا عنه التيار، يدفع الغرامة مع الفاتورة، هل تصف إنساناً خالف القانون مخالفة طفيفة بأنه مجرم؟ لا، أما كلمة مجرم للقتل، لعمل كبير، لعمل له مضاعفات خطيرة، تقول: هذه جريمة يا أخي، هذا مجرم قتل إنساناً بريئاً، يجب أن يُقتل، فإذا وصف الله سبحانه وتعالى إنساناً ما بأنه مجرم فمعنى هذا أن جريمته كبيرة جداً، وهل من جريمة أكبر من أن تكون مجرماً بحق نفسك؟ هذه النفس التي ملكك الله إياها جعلها أمانة بين يديك ..

{ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) }

[سورة الشمس]

إنسان حضر مجلس علم، تعرّف إلى الله، تعرّف إلى شرع الله، تعرّف إلى أحكام القرآن، تعرّف إلى هذا الدين الصحيح، وطبّقه، والتزم به، فسيعد وأسعد، هذا زكّاه، أما هذا الذي بقي جاهلاً، وتاه في شهواته، وانغمس في ملذّاته، وأكل من مال حرام، واعتدى وطغى وبغى، ونسى المبتدى والمنتهى هذا مجرم، ما قتل قتيلًا، ما أذى أحداً ولكنه لَجِقَ شهواته، هذا مجرم بحق نفسه، هذه النفس بدل أن تحلّد في الجنة جعلها تخلد في جهنم، وهل من جريمة أكبر من أن يكون الإنسان مجرماً بحق نفسه؟ يكفي ألا تصلي، ألا تذكر الله سبحانه وتعالى، يكفي أن تدع نفسك وما تشتهي، يكفي ألا تحاول تطهير نفسك من عيوبها، فأنت بحق نفسك مجرم هكذا.

القرآن الكريم كتاب هداية من عند خالق الكون:

{ فاستكبروا وكانوا مجرمين (75) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا } من عند من؟ من عند خالق الكون، خالق السماوات والأرض، رافع السماء بلا عمد، من عند الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون ..

((عن أبي ذر الغفاري قال الله تعالى: يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً فلا تظالموا، يا عبادي! إنكم تخطون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبلّي فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي! كلّمك جائع إلا من أطعمت فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي! لم يبلغ ضرركم أن تضروني ولم يبلغ نفعكم أن تنفعوني، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وجمعهم وجميعهم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني جميعاً فأعطيت كل إنسان منهم مسأله لم ينقص ذلك ممّا عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر، يا عبادي! إنما هي أعمالكم تزد إليكم - ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام - فمن وجد خيراً فليحمدني ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه.))

[صحيح مسلم، حلية الأولياء: صحيح ثابت]

{ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا } من عند الذات العليّة، من عند الرحمن الرحيم، من عند الحكيم العليم، من عند الغني، من عند القوي، من عند العزيز، من عندنا، لذلك قال بعضهم: لا تنتظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت .. **{ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ }** قالوا عن سيدنا موسى بأنه ساحر، وقالوا عن سيدنا رسول الله: إنّه ساحر، وشكّن بين المعجزتين، تشابهت قلوبهم وتشابهت أقوالهم.

مرّة طُلب من بعض البلاد الإسلاميّة أن تُوفد إلى عاصمة أوروبية بعض المنشدين وبعض قراء القرآن ليُنتلى في هذه العاصمة الأوروبية على أنّه فولكلور أي مثل الرقص

الشعبي، تشابهت قلوبهم، سحر، تقاليد، عادات، ﴿إِنَّ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هذا سحر؟! كتاب هداية يقال له: سحر؟ لو عرفه البشر لأمنوا به ولسعوا به، سحر؟!.. ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾.. هكذا تقولون؟ حقٌّ واضح كالشمس، دلائل واضحة، حجج قاطعة، معجزات، هذا سحر؟ ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾.

المؤمن يلين في الدنيا أما في أمور الدين فلا يلين :

استمعوا الآن إلى حجَّتهم في ردِّ الحقِّ : ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَلَفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَنَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.. أي أنت يا موسى هدفك أن تتغير عاداتنا وتقاليدنا، أن تتغير معالم البيئة، أن تتغير طبيعة العلاقات فيما بيننا، وهذا كلام يقوله الناس اليوم، هكذا نشأنا يا أخي، هكذا رُئينا، أنت من أين جئت بهذا الدين الذي يفرق بيننا؟ الإنسان المُعرض يحب أن يستمر على خطئه، على ضلاله، المفكر ليس له حق في أن يتقبَّل البيئة إلا إذا تطابقت مع كتاب الله، ما هذه الدعوة الباطلة؟ بيئة، محيط، تراث، معطيات، المحيط الخارجي، المؤثرات، التفاعل بين البيئة والمحيط، لا يوجد إلا الحق :

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ يُكْفِمُ الْحَقُّ فَمَادَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ (32)﴾

[سورة يونس]

جلس شاب مسلم على كرسي إلى جانب زوجته الشابة أمام منثي امرأه في أبهى زينة، ما هذا؟ عادات، هكذا الأصول، حتى يجلس أمامهم، لا يجوز؟! يتكلمون عنه أن به عيباً، يجب أن نرى الناس أن عندنا عريساً جيداً، أتعبد البيئة؟ أتعبد التقاليد؟ أتعبد العادات؟ يجب أن تكون التقاليد غير الإسلامية تحت أقدامنا، أتردي زوجتك هذه الثياب التي تبين خطوط جسمها؟ هكذا الموضة، أتعبدها من دون الله؟ لا يجوز، المسلم لا يبالي لا بتقاليد، ولا بعادات، ولا بأعراف، ولا بأساليب أنماط معيشة ثابتة، لا يبالي إلا بما في الحق من حق، إلا بما في كتاب الله من دلائل، هذا لا أفعله.

قالت له: يا بني - أمه - إن لم تكفر بمحمد لن أذوق الطعام حتى أموت، فقال سيدنا سعد: يا أمي لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة واحدة ما كنت لاكفر بمحمد، فكلي إذا شئت أو لا تأكلي، بعد ذلك أكلت.

طلبت منه زوجته حاجة لم يفعلها النبي عليه الصلاة والسلام فقال لها: والله يا فلانة إن في الجنة من الحور العين ما إن أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أفضل من أن أضحي بهن من أجلك، هكذا المؤمن، حازم، مواقفه صلبة، مواقفه واضحة، لا يلين، يلين في الدنيا أما في أمور الدين فلا يلين.

المفسد لا يمكن له أن يحقق النجاح في الحياة :

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَلَفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أخي هذه تقاليد موروثه، هكذا أصول الاحتفال بالزواج، هكذا فعل أبائنا وأجدادنا، من أنت؟ ﴿وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾.. ظلن فرعون وملؤه بموسى الظنون، ظلوه مثلهم يحبُّ الكبر، لا، إن الطيور على أشكالها تقع، الإنسان دائماً يظنُّ ما في نفسه، الكذاب لا يُصدِّق الصادق، يظنُّه كذاباً، والصادق يصدِّق الكاذب، ويظنُّه صادقاً، وإن الطيور على أشكالها تقع، ففرعون اتهم سيدنا موسى بأنه إنما جاء بهذه الدعوة لينازعه على الكبرياء في الأرض.. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَنِّي مُؤْمِنٌ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.. أي فرعون هذه الدعوة إلى الله، هذه البيئات، هذه المعجزات حولها تحويلاً آخر، ووصفها بأنَّها سحر، أي هذه الدعوة العظيمة كما يقال: فرغها من مضمونها، ووصفها بوصفٍ ساذج، هذه سحر، وأنا عندي سحرة وسوف يرثون عليك.. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَنِّي مُؤْمِنٌ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.. أي لا يمكن المفسد أن يحقق النجاح في الحياة، المفسد لن يحقق النجاح لهذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ هو لاء السحرة أرادوا إفساد هذه الدعوة الإلهية فسحروهم بآء بالإخفاق، سحرهم أبطله الله سبحانه وتعالى، طبعاً القرآن الكريم من إعجازه أن الآية القرآنية الواحدة لها معنى في السياق، فإذا نزعها من بين أخواتها أصبحت مبدأ عاماً، قاعدة ثابتة، دعنا من هذه القصة كلياً، وانزع هذه الآية وحدها، واكتبها على لوحة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ كل عمل هدفه الإفساد تدفع أنت الثمن، تبوء بالإخفاق، لن يُصلح الله عملك، ما دامت النوايا سيئة، ما دام الهدف دعم الباطل، ما دام الهدف تبديد نور الله عزَّ وجل، إطفاء نور الله لن يُصلح عملك، لماذا؟ لأنك تخالف سنَّة الكون.

الحق ثابت منذ الأزل وإلى الأبد والباطل زائل لا محالة :

ما معنى الحق؟ الشيء الثابت، ما معنى الباطل؟ الشيء الذي سوف يبطل، لا يقف على قدميه، سرعان ما يتهاوى.. ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)﴾.. أي من صفات الباطل الثابتة الزهوق، الزهوق والباطل مترابطان ترابطاً وجودياً، هذه فكرة دقيقة جداً، الطائرة مثلاً تقول: صف لي الطائرة؟ تقول لي: كبيرة، هناك بيت كبير أيضاً، هناك بناء كبير، هناك ساحة كبيرة، هذا وصف غير صحيح، ليس وصفاً جامعاً مانعاً، صفها أيضاً؟ تقول لي: فخمة، هناك بيت فخم، هناك أثاث فخم، هناك سيارة فخمة، هذا الوصف ليس صالحاً، لازلت تقول كذا وكذا، إلى أن تقول: تطير، كلمة تطير هذه صفة مترابطة مع الطائرة ترابطاً وجودياً، فإذا ألغيت الطيران ألغيت الطائرة، القرآن الكريم عبَّر عن هذه الحقيقة، عن الترابط الوجودي بفعل كان التام.

فعل كان له معنيان، توجد عندنا كان الناقصة: كان الجو ماطرأ، أصل الجملة الجو ماطرأ، تركيب اسمي إسنادي، إذا قلت: كان الجو ماطرأ، فأنت بهذا نقلت هذا التركيب الاسمي إلى الزمن الماضي، فكان أفادت معنى المضى فقط، ولم تعد معنى الحدث، من هنا قالوا: فعل ماض ناقص، لكن هنا كان ذات دلالة أخرى، وهي كان التامة فلما ينتبه

لها الناس ، ما كان الإنسان ليظلم أخاه ، هذه بمعنى ما وُجِدَ الإنسان . الآن : ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)﴾ أي منذ أن وُجِدَ الباطل صفته اللازمة المترابطة معه ترابطاً وجودياً أنه زاهق ، فإذا كنت مع الباطل عقيدة فأننت زاهقاً معه ، إن كنت مع رجل مُبْطِل فأننت زاهقاً معه .. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)﴾ .
 ﴿فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا لِمُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)﴾ أي الحق ثابت منذ الأزل وإلى الأبد ، وكلمات الله سبحانه وتعالى تتبين الحق وتُجفِّه وتوضِّحه ، وسوف نتابع هذه القصة إن شاء الله في درس قادم .

* * *

جهاز المناعة من آيات الله الكونية :

من آيات الله الكونية أن الله سبحانه وتعالى خلق في أجسامنا جهازاً بالغ الخطورة هو جهاز المناعة ، أي يوجد عندنا عقد لمفاوية مركز تجمع للكريات البيضاء ، تلك الكريات التي تجول في الدم ، وهذه الكريات البيضاء بمثابة القوات المسلحة للدولة تماماً ، فما إن تحس هذه الكريات البيضاء أن في الدم جسماً غريباً ؛ فيروس ، جرثوم ، حتى ترسل بعضاً منها بمهمة خاصة ، هذه المهمة استطلاعية تقترب من هذا الجسم الغريب ، من هذا الفيروس ، من هذا الجرثوم لتتعرف على بنيته ، وعلى نقاط الضعف فيه ، ثم تعود لتخبر بعض المراكز بنقاط الضعف ، هذه المراكز تُصنِّع في الحال مواد مضافة لهذا الجرثوم أو هذا الفيروس ، هذا التصنيع يتم بسرعة فائقة ، المرحلة الثالثة كريات بيضاء آخر تحمل هذا المصل المضاد وتنتقل به ، وتحيط هذا الجرثوم ، وتفرض عليه هذا المصل حتى تقتله .

جهاز المناعة الفضل لله أولاً ثم له بوقايتنا من الأمراض ، هذا الجهاز الآن بدأ ينحل في أوروبا ، انحلال المناعة في الإنسان مرض خطير ، يأخذ كل المساحات الكبرى في الصحف ، إنه مرض الإيدز ، انحلال المناعة ، سلط الله سبحانه وتعالى على هذه الكريات البيض الاستطلاعية والمصنعة والمقاتلة سلط عليها فيروساً يسميتها ، فإذا انحلت المناعة في الإنسان مات لأتفه سبب ، يميته الرشح ، الرشح يميته ، أي مرض يصيب هذا الإنسان يميته ، قال في عام واحد وثمانين ظهرت خمس إصابات في أمريكا ، ثم تفاقم الأمر بمعدل مئة إصابة كل أسبوع ، والشيء الغريب أن واحداً من هؤلاء لن يشفى ، والجهود الآن منصبة لا على شفاء المرضى . بل على إيقاف هذا المرض عند حد ، وبين الإصابة والموت من ثمانية عشر أسبوعاً إلى مئة وخمسة وعشرين أسبوعاً ، أما الشيء الغريب أن الله سبحانه وتعالى جعل هذا المرض عقاباً عاجلاً للانحراف ، هذا المرض أسبابه الشذوذ الأخلاقي ، والمخدرات ، والخمور ، أبدأ .

ثلاثة أشياء مهلكة ؛ الشذوذ الأخلاقي ، وتناول المخدرات ، ثم ينتقل هذا المرض عن طريق الدم ، فلو أنه أشتري دم ملوث وانتقل من بلاد إلى بلاد ينتقل هذا المرض . والآن الذعر مخيم على أوروبا وأمريكا من جراء هذا المرض .
 ربنا عز وجل قال :

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الرِّزَا إِنَّهُ كَانَ فَاجِحَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32)﴾

[سورة الإسراء]

هؤلاء ظنوا أن الحياة هي كل شيء ، وأن اللذة هي كل شيء ، وأن المال هو كل شيء . ولم الدين ؟ لم هذه الخرافات ؟ الدين يقي ، الدين يحقق لنا السلامة والسعادة ، هذا الجهاز الوقائي الدفاعي ينحل وإذا انحلت معه حياة الإنسان .
 فالاستقامة صحة ، الاستقامة صحة بنالها المؤمن ، وهذه الآيات دالة على حيدان الغرب عن الحق ، وكيف أن العقل وحده لا يكفي ، لا بد من إيمان يصون العقل من الزلل ، العقل شيء ثمين لكن من دون إيمان قد يشتط :

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ سِحْرٌ يُؤْتِرُ (24) إِنَّ هَذَا إِذَا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأَصْلِيهِ سَعَرَ (26)﴾

[سورة المدثر]

إذا الإنسان كلما تمسك بقواعد الدين كلما ضمن سلامته في الدنيا والآخرة :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30)﴾

[سورة فصلت]

والحمد لله رب العالمين